علم الانسان

Anthropology.

(٢) فروع السلالة البشرية ومميزاتها

اذا سرت في شارع من شوارع احدى المدن الكبيرة التي يكثر تردد الغرباء اليها من جميع جوانب الارض في بعض فصول السنة كالقاهرة وباريس والاستانة وشنغاي ترى وجوهاً كثيرة مختلفة في اللون والملامح منها ما يسهل ردّهُ الى اصلهِ ومنها ما لا يستطيع معرفتهُ الاَّ الخبير . فانك تستطيع مثلاً ان تميز الهندي عن الاوربي بسهولة لانهما من جنسين مختلفين ولكنك لا تستطيع بمثل تلك السهولة ان تميز بين بعض الالمان والفرنسويين والانكليز والايطاليين والاميركيين لانهم كلهم من جنس واحد

ومقومات الجنسين عند علماء الانثروبولوجيا مزايا او صفات موروثة طبيعية كانت او عقلية وهي تتناول كل بنية الانسان وقوى نفسهِ غير مقتصرة على لون البشرة وشكل الاعضاء . لذلك وصف الهندي الاميركي بالصبر والتسليم وعدم المبالاة باللذة والالم . والزنجي بالخفة والطرب . والهولندي ببطء الانفعال . والايطالي بسرعتهِ . ولا ينكر ايضاً ان للاقليم والمبادىء تأثيراً في تكييف الاخلاق الى حدّ يصعب عندهُ التفريق بين اثر هذا العامل او ذاك المؤثر . ولكن للاجناس المختلفة اثراً بيناً في تكوين الاخلاق . سل ايَّا كان من رائضي الجياد يخبرك ان لا الاقليم ولا العناية بالترويض ولا نوع العلف ولا مقدارهُ ولا شيء آخر يجعل الفرس المجين اصيلاً كريماً يصلح للجري في حلبة السباق

كما تغير الحي باختلافهِ من صورة الى صورة اخرى اكتسب شيئاً من الصلابة من جهة والمرونة من جهة اخرى . وهذه الصلابة تمكنهُ من الاحتفاظ بما نالهُ من الصفات . وفيما عدا ذلك يبقى مرناً حرًّا في اختيار ما شاء من السبل للسير فيهِ . فالجنس اذاً هو ما كانت فيهِ صفات اكتسبها في ارتقائهِ الطبيعي فتوارثها آحادهُ وثبتت فيهم

لو سئل احدنا كيف يستطيع التفريق بين الصفات الموروثة والمكتسبة فيهِ لما سهل عليهِ الجواب . فلنفرض انهُ ولد توأمان متشابهان كل التشابه حتى لا يمكن تمييز الواحد عن الآخر وان توأماً منهما فقد احدى رجليهِ في صغرهِ فلما شبَّ عيّن كاتباً في محلّ تجاريّ

يلزم فيه مقعده طول نهاره ولا يفارقه . اما الآخر فمن ساعيًا في البوسته دائم الحركة والجري . فبعد هذا الاختلاف الكثير في نوع المعيشة يأخذ التوأمان يختلفان في المنظر والهيأة فيمتقع وجه الكاتب ويسمن وجه الساعي . ذلك يقضي ساعات الفراغ في المطالعة وهذا في اللعب والرياضة ولكن الذي يعرفهما تمام المعرفة يرى فيهما كليهما اشياء كثيرة متشابهة وهي تنم عن طبيعة واحدة وميل واحد . مثال ذلك انهما كليهما نزق الطبع سريع الغضب . وهذا النزق موروث فيهما وهو احدى الروابط التي تربطهما الواحد بالآخر

ثم لنفرض ان هذين التوأمين الشقيقين تزوجا توأمتين متشابهتين كل التشابه مثلهما وان كل زوجين منهما رزقا اولاداً . فاي الفريقين من الاولاد يكون اشد ارجلاً من الآخر بعد ما قويت رجلا احد الابوين بالاستعمال وضعفت رجلا الآخر بالاهمال ؟ ولكن هل يؤثر الاستعمال والاهمال في النسل ؟ هذه هي المسألة التي يعسر الجواب عنها والتي تقف عقبة في سبيل تفهمنا للوراثة وجميع ما يتعلق بها . وهي ما تسمى عرفًا وراثة الصفات المكتسبة

تسمع الناس عامة يتحدثون بانتقال اثر الاستعمال او الاهمال من الوالدين الى الاولاد كأن ذلك قضية مقررة لا جدال فيها . وليس غريبًا ان يذهبوا هذا المذهب ما دام بعض خاصة العلماء قد سبقوهم اليه مثل لامارك الذي وضع مذهبًا في اصل الانواع قبل داروين بخمسين سنة وكان مذهبهُ على مبدإ النشوء والارتقاء من بعض الوجوه . فقد خيل اليه ان عنق الزرافة طال من استمرارها على مدهِ ثم توارث ذلك نسلها . فقد قال ان الزرافة كانت تضطر ان تمد عنقها لتصل برأسها الى اعالي اغصان الشجر كلما اشتد القيظ ويبس العشب . فما قدر منها على بلوغ تلك الاغصان عاش واورث هذه القدرة خلفهُ . وما لم يقدر هلك . أما داروين فمع تسليمهِ بان للاستعمال والاهمال بعض الاثر في النسل رأى ان هذا الاثر قليل ضئيل بالنسبة الى ما سماهُ علماء البيولوجيا بالتغير الذاتي . وذهب بعض انصار مذهبهِ الى ابعد من ذلك بزعامة وسمان الالماني . فانهم قذفوا بلامارك ومذهبهِ من حالق وقالوا ان التغير الذاتي يكفي وحدهُ لاطالة عنق الزرافة أي ان زرافة منها ولدت طويلة العنق فكان طول عنقها مفيدًا لها فوقاها من الهلاك جوعًا في زمن القيظ كما هلك الزراف القصير العنق ومع الزمن لم يبق من الزراف الا ما كان عنقهُ طويلاً . أما كيف ولدت اول زرافة طويلة العنق فهو انهُ اتفق وجود خاصة في والديها حين ولداها كذلك .

هذا المذهب لا يعلمنا شيئاً مقرراً ولا يدلنا على شيء يعينه فهو ليس في الواقع سوى محذر لنا من التمسك بمذهب الاستعمال والاهمال ومنبه الى انهما لا يكفيان لتعليل التغير بل لا بد من التنقيب عن تعليل آخر لا يزال طي الخفاء

هذا من جهة . ومن جهة اخرى بينما يخيل الى عامة الناس انهم يرون اثر الاستعمال والاهمال في كل مكان لا ينكرون ان هناك ادلة كثيرة على الضد من ذلك . فان وسمان قطع اذناب الوف من الفيران وزاوج بينها بعد قطع اذنابها فولدت فيرانا باذناب مثل غيرها . وقد قال احد الظرفاء في تعليل بقاء الاذناب ان الفيران لم ترد قطع اذنابها فبقيت لاولادها ولو ارادتهُ لما بقيت لها . ولكن بعض الناس يحلقون ذقونهم وهم يريدون ان لا تنمو فيها شعر وقد كان آباؤهم واجدادهم واجداد اجدادهم من قبلهم يحلقون ذقونهم ومع ذلك لا نجد الابناء اقرب الى الجرد من الاباء

أما مبدأ التغير الذاتي فخلاصتهُ على ما ذهب اليهِ وسمان ان الاحياء الناشئة عن اتحاد خليتين اقرب الى التغير من الاحياء الناشئة عن خلية واحدة . وبناء على هذا المذهب يتوقف التغير في الاكثر على نواميس تفاعل الصفات المتباينة التي جمع اتحاد الخلايا بينها . وهذه النواميس لا تزال مجهولة . ولكننا نعرف عنها شيئاً جديداً كل يوم . والتجارب التي تجرب على طريقة مندل في الوراثة تبشر بايضاح ما استبهم علينا الآن

هذا وان نشوء الحي من اتحاد الخلايا ليس مجرد مزج او اضافة بل هو عمل من اعمال التنظيم الانقلابي . مثال ذلك ان الوالدين اللذين لكل منهما رجلان لا يلدان ولداً رجلاهُ بقدر ارجلهما طولاً ولا ولداً ذا اربع ارجل اثنتان منها على شكل واحد واثنتان على شكل آخر . وبعبارة اخرى ان الولد يأخذ بعض الصفات الناشئة عن اتحاد الاب والام وينبذ البعض الآخر . والاولاد المختلفون نتج اختلافهم من انتخابات صفات مختلفة من بين العناصر الجرثومية في والديهم . وطريقة مندل تبحث في الناموس الذي بموجبهِ تتوزع تلك الصفات على النسل . فان كل ولد هو فرد قائم بنفسهِ ولهُ نظام خاص بهِ . ومعنى ذلك ان العناصر التي يتألف منها ذات نظام معين يشدُّ بعضها بعضاً . والخلاصة ان التوازن هو الذي يجعل الحياة ممكنة

ثم ان ذلك النظام الاكبر يشتمل على نظامات مختلفة اصغر منهُ كما تشتمل الحكومات الاتحادية الكبرى على حكومات اصغر منها وتامة في تركيبها حتى تكاد تكون منفصلة عنها

كنظام الحكومة الالمانية او الحكومة الاميركية . لذلك كانت صور التحول والاتحاد كثيرة الاختلاف والتعدد ولكن منها ما هو اقوى واثبت من الآخر او اصلح للبقاء بواسطة الانتخاب الطبيعي كما يعبر عنهُ البيولوجيون

ولننتقل الآن الى بسط مبدإ الانتخاب الطبيعي غير باحثين في هل كان للاستعمال والاهمال يد في جعل الاحياء تتخذ صورها واشكالها المختلفة او هل كان اتخاذها اياها اعتباطاً بالتغيّر الذاتي . وهذا المبدأ اي مبدأ الانتخاب الطبيعي كشفهُ دارون والفرد رسل ووليس في وقت واحد كما هو مشهور . وكلاهما قبس الشرارة الاولى من قبس انكليزي اسمهُ ملثس . فانهُ ابان قبلهما بخمسين سنة ان ازدياد سكان الارض سيفوق ازدياد الطعام اللازم لهم بمراحل كثيرة . وحينئذٍ فلا بدَّ من نزول بعض الآفات الطبيعية بالناس كالمجاعات والحروب لاعادة التوازن . وطبّق دارون ووليس هذا المبدأ على النبات والحيوان فابانا ان قدراً عظيماً من انواع الاحياء التي تظهر على الارض تسعى جهدها الى رزقها لا بدَّ من استئصالهِ . ولما كانت كثيرة الاختلاف في نظامها وتركيبها فمن المعقول ان نفرض ان الاحياء التي هي اصلح بنيتها من غيرها للتوفيق بين معيشتها والاحوال المتغيرة المحيطة بها هي التي تكون ابقى من غيرها . ثم بحثا فوجدا ان الواقع يؤيد هذا المذهب . ولكن لا يبرح عن البال ان استئصال الضعيف في الطبيعة لا يثبت بقاء الاصلح دائماً بل لا بدَّ من حدوث الفواجئ على الدوام التي تذهب بالاصلح ايضاً . على انهُ يقال اجمالاً ان النوع الذي هو اقدر من غيره على التوفيق بين معيشتهِ والمحيط الذي يكتنفهُ هو الذي يبقى دون غيره سواء كان السبب في ذلك كونهُ اكثر اختلاطاً في تركيبهِ او اكثر بساطة

والمراد بالبقاء هنا البقاء مع ولادة النسل فانك اذا بلغت الثمانين ولم يكن لك اولاد لا يعدّ ذلك بقاء لك في عرف البيولوجيين . اما جارك الذي مات وهو ابن اربعين وله اولاد كثار فيعدُّ باقياً على حد قولهم من خلّف ما مات . والانتخاب الطبيعي انما يكون بين الافراد لانهم هم الذين يتوالدون . على ان سبب بقاء الفرد كثيراً ما يكون خارجاً عنهُ لا يد لهُ فيهِ . فبين النحل مثلاً تبقى الملكة وبعض الذكور لإخلاف النسل وهي كلها لا عمل لها لأن النحل العامل عقيم وعملهُ بناء الخلية وجني العسل والاعتناء بالبيض والصغار . ومن الناس من يخلّف نسلاً وهو لا يهتم بحفظ نسله بل يهتم بهِ غيرهُ من الذين يموتون في سبيله بلا عتب

ولما كانت مسئلة اختلاف النسل فردية وشخصية صرفة فانهُ يخشى على الدوام ان تسرف هذه الجماعة او تلك من الجماعات الانسانية في خيرة افرادها حتى ينتهي بها الحال ان تأخذ بدلاً منهم بعض الذين لا قدرة لهم بالطبع على تأدية الخدمة للمجتمع . لذلك يجب ان يكون الهمّ الاول لكل شعب تربية العيال الطيبة . وبغير ذلك لا يمكن ابقاء روح الغيرية حيًّا في هذه الدنيا

قلنا في صدر هذه المقالة ان الوراثة هي الصلابة في الطبيعة البشرية يقابلها شيء كثير او قليل من المرونة لحفظ الموازنة . ولا يخفى على بعض الوجوه ان طبيعة الطفل كلها بما فيها من المرونة القليلة موروثة من والديهِ ولكن غرضنا هنا ان نبين ان هذه المرونة الموروثة لا شأن لها في الحياة وان الصفات الصلبة الواضحة الحدود المتشبة على نظام معين انما هي العامل الوراثي فيما سميناهُ بالفرع او الجنس . على انهُ ليس بين تلك الصفات ما هو تامّ الحدود اذ في طبيعتها كلها شيء من المرونة قلّ او كثر فان في النحلة بغرائزها التامة الواضحة الحدود شيئًا من المرونة . الا تراها اذا كانت خليتها غير منتظمة في شكلها تغير غريزتها التي تأمرها ببناء قرص منتظم وتطابق بين القرص والخلية فتبني قرصًا غير منتظم الشكل ؟

ولكن الصفات الجنسية يجب ان تكون ثابتة ليمكن تمييز اجناس الناس المختلفة بعضها عن بعض . والعادات ثابتة ايضًا لسوء الحظ ولكنها من متعلقات الجزء المرن من طبيعتنا لاننا عند تكوين العادات فينا نكون مرتبين بادئ بدء ثم اذا اندفعنا اليها فارقتنا تلك المرونة . لذلك لا بدّ من اطراح العادات عند بحثنا في الوراثة ونواميسها

وربّ سائل يسأل ما هي المميزات الجنسية بين الناس . وبعبارة اخرى ما هي الخصائص البدنية والعقلية التي تفترق اجناس الناس وتتميز بها بعضها عن بعض ؟ فقد طالما فتش الانثروبولوجي عن علامة خارجية تميز هذا الجنس من ذاك وتوهّم انهُ يجدها في الجمجمة او تداريزها او عظام الانف او العين او الاذن او الذقن او ضرس العقل او الشعر وخطوط الكف او الساق او المرتوب الى آخر ما هنالك فباء بالخيبة والفشل . ولعلّ اعظم مميزات الاجناس لون البشرة وشكل الجمجمة فلنبحث فيهما